حنين

بقلم: علاء سكري

معقول الانسان يحن لشي ما بيعرفه حتى؟!
ما بعرف ليش دائمًا هالسؤال براودني كل ما بسمع كلام أمي وأبي وإخواتي الكبارعن بيتنا بالشام. بس أكتر شي معلم بذاكرتي هو حوار صار مع مرا من قرية لوبية قضاء طبريا اسمها عايشة الزين[1] .
كان الصحفي يللي عم بعمل معها المقابلة عم بسألها، وكانت عيونها فيها الخجل والحيا يللي بيتناسب مع مرا عاشت بقرية صغيرة ما تعلمت ولا دخلت مدارس وعالأغلب كل اللي تعلمتو تعلمتو من بيت أبوها وبيت جوزها. يعني هالشخصية اللي ممكن ما يكون في بدفترها غير عمل البيت وترباية الولاد كيف بدها تواجه كاميرا للمرة الأولى؟!
اللافت بالموضوع كان إنو الجواب ع قد السؤال والعيون ملبكة. و فجأة لما يسألها: متذكرة بيتكو بفلسطين؟ ما كان وقتها بحاجة ليسأل أي شي عن البيت لإنو فجأة اللسان انفكت عقدته. وصفتلو البيت وشو في قدامو واللوزتين يللي كانت معلقة عليهن مرجوحتها والغرفة يللي حد البيت واللي كان أبوها يضب فيها البضاعة يللي بتاجر فيها والمغارة يللي ورا البيت واللي كانت تجمع مية الشتا والمواشي تشرب منها وحكت وحكت وحكت.
والكلمة اللي وقف عندها الصحفي وقاطعها عندها كانت لما قالت: هو البيت كان كلو غرفة واحدة بس كبيرة. ولما البيت يكون كلو على بعضو غرفة ويحمل معو كل هالحنين ولمعة العيون بس تتذكره معناها القصة مش بعدد الغرف ولا بوسعها ولا بالجنينة الكبيرة ولا بأيا شي من هاد. القصة بالمفهوم... بالفكرة... بحالة الإطمئنان يللي بيخلقها وجود البيت بحياتنا. غالباً بيسموه الإنتماء، هو الإنتماء.
كان بيتنا بالشام عبارة عن بيت صغير قدامو حقول خضرا بتلمع تحت الشمس وبالرغم من أن الظروف أجبرتنا على الرحيل عن البيت وكنت كتير صغير وقتها بس بتخيل بعض التفاصيل من يللي بسمعو من روايات أبي وأمي وأخواتي الكبار.
أنا بعرفو من كلامن عنو من وصفن إلو وبس. أما موضوع شو بشعر تجاهو فبكل صراحة ما بشعر بشي يمكن لإنو الموضوع هون بيختلف عن فكرة الحنين للوطن المجهول يللي بتنطبق على جدي مثلًا.

[1] عائشة محمد الزين , مواليد 1932, لوبية-طبريا-فلسطين, أرشيف النكبة
https://libraries.aub.edu.lb/poha-viewer/render.php?cachefile=nn_0433_aishah_zayn.xml

الحاج حمودي السعيد [2] لما كان عم يحكي عن التكاتف والتكافل بقريته وعن خير الأرض الكتير فجأة وكأنه حنّ، هون المصطلح الأنسب هوي انو "حن" فقال: " لو بصير عندك قصر هون (مكان لجوءه خارج فلسطين) وهناك (بقريته بفلسطين) كوخ، الكوخ أحسن من القصر.

قديش غريبة المفارقة بين هون وهناك ويا لطيف شو بتتكرر معنا احنا الفلسطينية أو قول العرب بشكل عام، لإنو هلأ تذكرت عبارة مرت بمسلسل سوري عن الأحداث بعد 2012 كانت فيها البطلة مجتمعة مع رفقاتها وصحابها السوريين ببيروت؛ قالتلن "بس نحكي عن الشام ما فينا تقول هنيك لأنو بحس لما بدي احكي عن الشام ما فيني الا ما قول هون"، وبكيَت.

هل أنا اليوم هيك بحس؟! يمكن عن جديد بلشت أشعر بالحنين لبيتنا بالشام. لإنو لو تقاطعت هجرتنا بهجرة السوريين بضل الفلسطيني إلو أصل وسبب تاريخي لأي كارثة بتصيبو وهي النكبة.

يعني مثلًا، أبي عاش دوره كإنسان فلسطيني من خلال تجربة الأسر باجتياح لبنان 1982. ما بعرف أديش بجوز نعمل إسقاط أو مقارنة بين تجربتي مع الشام وتجربة أبي مع قريتنا بفلسطين، وعم بقول قريتنا لإننا بعدنا لليوم منعرف عن أنفسنا بإننا فلسطينية بس بضل التكرار أو خليني سميها استمرارية النكبة هي سيدة الموقف.

يمكن بالنسبة إلي جدي عاش الهجرة من طبريا وأبوي دفع ثمن فلسطينيته بال82 بالأسر وأنا هلأ دوري أدفع، وليكني عم إدفع بسبب الحرب بسوريا ويمكن خسرت أول معركة من المعارك يللي بيعيشها الفلسطيني ويللي هيي معركة عيش طفولة طبيعية أو يمكن الفلسطيني بكل مكان بيوصلله بضل في حساب بيندفع من دمه ومن تعبه. تجربتي بالتهجير للبنان والإذلال اللي عم عاني منو هي امتداد لهجرة جدودنا بالـ48.

كيف طلعنا من البيت، طبعًا حسب ما بيحكولي أهلي كيف توجهنا لبيت عمي بعدين وهايمين ع وجوهنا وصلنا للحدود الاردنية اللي منعتنا ندخل مع انو عماتي يعني خواتو لأبوي دخلوا عادي، من ثم كانت المحطة الأخيرة لبنان، أو خليني أقول المحطة الأخيرة لحد الآن. كل هاد سيناريو مكرر. يعني إذا بدي أرجع لكلام الحاجة عايشة الزين وكيف وصفت خروج أهلها من لوبية بحس عم تحكي عني وعن أهلي بالفترة اللي مرقت. هي بتقول: "أول ما بلش الضرب يقوى ابوي هرب فيتل ع قرية بحدنا اسمها نمرين وبتنا فيها خمس ليالي بعدين عاودنا عالبلد بس بعدها بأسبوع طلعنا من البلد (نهائياً يعني)." وهون الحاجة عايشة بتتغير ملامحها لما قالت وعيونها مليانة حسرة : "والله بعدني بتذكر كيف أبوي وقف قبال البلد بعد ما طلع قلها آاااخ

---

[2] حمودي سعيد حسن، مواليد 1928،لوبية-طبريا-فلسطين، أرشيف النكبة
https://libraries.aub.edu.lb/poha-viewer/render.php?cachefile=nn_0238_hammudi_hasan.xml&translate=1&time=612&panel=1

ااخ احنا نوينا عالسفر وبخاطرك يا بلادنا هيهات عاللي عاد يعاود عليكِ يا فلسطين... يا لوبية وهياه ما عاود".

هي الوقفة هي نفسها يللي وقفها أبي و وقفناها كلنا عالحدود اللبنانية السورية. وأكيد قلنا هيك اذا مش بلساننا بسرنا وروحنا هيك بتكون قالت "هيهات عاللي بيردعلك يا بيتنا بالشام"

أنا عن نفسي وبعد تجاربي يللي عم عيشها هون كفلسطيني سوري فيني قول اني أبلشت حن لبيتنا بالشام لإني هلأ حسيت بشعور أبي تجاه البيت يللي ما شافو بطبرية. الظروف القاسية بتخلي الواحد يعيد حساباتو. إنو بالله كيف عمي الفلسطيني اللبناني بكون عندو امتيازات اكتر من أبي الفلسطيني السوري والأحسن منن تنيناتن عمتي يللي معها جواز أردني مع انها كمان اختن.

مو شي عجيب انو صاحبي وجاري بمخيم الجليل يللي عم بدرس معو وطول نهاري معو وحتى لهجاتنا بتشبه بعضها، هوي عادي يتنقل بهويته وأنا لإني فلسطيني سوري لازم جدد إقامتي كل شوي. إنو مين بجدد إقامته بمخيم. يا ناس المخيمات شي مؤقت بالحياة وليست هدفًا يُقصد، شي طارئ.

بس يمكن نحنا الفلسطينية مكتوب علينا ما نستقر ونعيش ونموت بحالة طوارئ.